مغارة (إمين إفري) بالمملكة المغربية قيمة مضافة للسياحة البيئية

نجيب خليفة-الدار البيضاء

مدينةَ دمنات القابعةَ وسط سلسلةَ جبال الأطلس الكبير بالمملكةَ المغربيةَ سبقَت مراكش إلى الوجود بحوالي 40 سنةَ. وتعني كلمةَ «دمنات» الأمازيغيةَ «الأراضي الخصبةَ» بحكم تَميز منظرها العام بالحقول المحيطةَ بها وهو ما يفسر إطلاق الفنانين التشكيليين على أحد أنواع اللون الأخضر (الأخضر الدمناتي). زوارالمدينةَ تعودوا التوقف عند مآثرها التاريخيةَ: مثل دار مولاي هشام أو قصبتها رغم أنها صارت أطلالا منسيةَ.

اختلفت الروايات حول تأسيس مدينة دمنات، فهناك من يعتبر أن موسى بن نصير آخر ولاة عبد الملك بن مروان هو الذي بناها في القرن الثامن الميلادي، في حين يرجع بعض المؤرخين بناءها إلى ما قبل الإسلام. ويرجح المؤرخون أن أول ما بني بمدينة دمنات هي القصبة الحالية المحاطة بسور الذي يرجع تاريخه إلى نفس تاريخ بناء المدينة، ويسمى سور موسى بن نصير، وقد أعاد بناء هذا السور المولى هشام أخ المولى سليمان أحد أبناء الملك العلوي المولى إسماعيل.

وأصبح الوافدون على دمنات، التي ما زالت تحتفظ بملاحها القديم (الحي السكني لليهود)، يقصدونها في الغالب كمحطة عبور إلى القنطرة الطبيعية «إمين إيفري»، أو إلى بصمات

كاقية ماء

حوض ماء قرب المغارة

الديناصورات؛ في حين يقصد هواة الصناعة الخزفية قرية بوغرارت القريبة لشراء منتوجاتها.

وتتوفر المدينة على مآثر تاريخية مهمة كالقصبة والسور الذي يحيط بها، والذي لا تزال بقاياه تشهد على أهميته الأثرية، وكذا قصر المولى هشام الذي بناه منذ حوالي 900 سنة بعدما التمس منه سكان مدينة دمنات أن يقيم بينهم ليضمن استقرارهم. إلا أن أهم ما يميز مدينة دمنات من الجانب الطبيعي هي مغارة «إمين إفري» الخلابة، والتي تستقطب عددا وافرا من الرواد من شتى أنحاء المغرب على مدار السنة خاصة في فصلي الربيع والصيف.

إمين إفري: مغارة عمرها 1،8 مليون سنة

من بين الثروات الجيولوجية التي تزخر بها جبال الأطلس مغارة «إمين إفري»، وهي عبارة عن قنطرة طبيعية تقع في منطقة الدير بإقليم أزيلال المشهورة بشلالات أوزود، على سفح الأطلس الكبير الأوسط الغربي. مناخها قاري بارد شتاء وحار صيفا. تكونت مغارة «إمين إفرى» (وتعني فم المغارة) بالأمازيغية، بفعل حت مياه واد «تسليت» لصخور الترافيرتان الهشة التي ترجع إلى الحقبة الرابعة : (ما يناهز 1,8 مليون سنة). وهي تمتد على مساحة 1500 متر مربع. كما تتوفر على مياه مهمة تستغل في سقي الحقول والبساتين المجاورة لمدينة دمنات.

مغارة الأساطير

تعرف مغارة «إمين إفرى» بأسطورة تتناقلها الأجيال عبر التاريخ، وهي أن

عفريتا ذا سبعة رؤوس كان يسكن هذه المغارة يعمل على خطف العرائس؛ فاتفق الأهالي على أن يقدموا له كل سنة عذراء. ولما حان دور ابنة الملك أشفق هذا الأخير على مصير ابنته، فاستغاث ببطل يسمى «ملك سيف» الذي استطاع أن يهزم ذلك العفريت، ويقضي عليه بعد أن اقتحم عليه المغارة.

غير أن المغارة لا تزال تخطف الألباب، لما تتميز به من جمال أخاذ في هندستها الطبيعية، وتشكل الصخور، وتساقط قطرات الماء الباردة من سقفها أشبه برذاذ الخريف ينعش الوجه، ونباتات خضراء تتدلى كأنها خصلات شعر العرائس التي كان يخطفها العفريت في الأسطورة، ناهيك عن رقرقة الماء الذي يجري بين الصخور محدثا سمفونية ترافق بشكل غناء زقزقة الطيور التي تحلق فوق المكان. بعضها اختار الإقامة بين ثغرات الصخور داخل المغارة،

وبعضها الآخر مجرد أسراب عابرة جعلت من المكان محطة لترتوي وتستريح. ولا يخلو سقف المغارة أيضا من أعشاش النحل. وتعتبر المغارة ملاذا أيضا لقاطنة مدينة دمنات، والقرى المجاورة الذين تضايقهم حرارة الشمس، وهي في نفس الوقت قطب سياحي طبيعي يجلب السياح الأجانب والمغاربة على السواء.

لكن الأسطورة الأبرز التي نسجت حول هذه المغارة ورسخت في مخيلة ساكنتها تتعلق بوجود الديناصورات، إذ أمام اعتياد مجموعة من الطيور السوداء، التي تشبه الغراب، على التحليق فوق هذه القنطرة الطبيعية، أصبح سكان المنطقة يتداولون أسطورة مفادها أن ديناصورا كان يعيش بالمكان قبل آلاف السنين، وبعد مدة مات وخرجت من جثته تلك الطيور التي ظلت وفية للمكان.

وتجدر الإشارة إلى أنه، عندما تتجاوز القنطرة من جهة اليسار تصل، بعد قطع 7 كيلومترات، إلى موقع «إيوردن» الذي يضم صخورا طينية لازالت تحتفظ بآثار «حوافر» الديناصورات القدامى الذين انقرضوا لكن بصماتهم لازالت قائمة.

منظر قرب المغارة